المحاضرة رقم 05: نظريات علم الاجتماع الثقافي (02)

خامسا: النظرية الايكولوجية

أفرزت التحولات البيئية والديموغرافية والعمرانية التي عرفتها المجتمعات الحديثة اهتمامًا متزايدًا بالعلاقة بين الإنسان وبيئته الطبيعية والاجتماعية. وفي هذا السياق برزت **النظرية الإيكولوجية** كاتجاه سوسيولوجي يدرس التفاعل المتبادل بين الثقافة والبيئة، ويركز على كيفية تكيف الجماعات البشرية مع شروطها البيئية، وكيف تؤثر هذه الشروط في أنماط التنظيم الاجتماعي والثقافي. ويُعدّ هذا المنظور من المقاربات الأساسية في علم الاجتماع الثقافي والأنثروبولوجيا البيئية.

1. نشأة النظرية الإيكولوجية وتطورها

تعود الجذور الأولى للنظرية الإيكولوجية إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، متأثرة بعلم الأحياء (الإيكولوجيا الطبيعية) وبالنظريات التطورية، غير أن التبلور السوسيولوجي الحقيقي جاء مع **مدرسة شيكاغو** في عشرينيات القرن العشرين، خاصة في دراسات المدينة والهجرة والتوزيع السكاني.

كما تطورت لاحقًا في إطار **الأنثروبولوجيا الثقافية** و**الأنثروبولوجيا الإيكولوجية**، مع اهتمام متزايد بالبيئة، والموارد الطبيعية، وأثرها في تشكيل الثقافة.

2. المفاهيم الأساسية للنظرية الإيكولوجية

أ- **البيئة:** لا تُختزل البيئة في بعدها الطبيعي فقط، بل تشمل:

- البيئة الطبيعية (المناخ، الموارد، الموقع الجغرافي)
- البيئة الاجتماعية (العمران، الكثافة السكانية، التنظيم المجالي)

ب- **التكيف الثقافي:** يشير إلى الاستراتيجيات الثقافية التي تطورها الجماعات البشرية للتكيف مع شروطها البيئية، مثل أنماط السكن، الغذاء، اللباس، والأنشطة الاقتصادية.

ج- **التوازن الإيكولوجي:** يعني حالة الانسجام بين الإنسان وبيئته، حيث تضمن الممارسات الثقافية استدامة الموارد وعدم استنزافها.

د- **المجال الإيكولوجي:** هو الحيز المكاني الذي تتحرك داخله الجماعات البشرية، ويتضمن توزيع السكان، استعمال الأرض، والعلاقات بين الجماعات.

3. روّاد النظرية الإيكولوجية

الرائد	الانتماء العلمي	أهم الإسهامات والأفكار
روبرت بارك(Robert Park)	علم الاجتماع الحضري – مدرسة شيكاغو	• دراسة التفاعل بين الجماعات في المجال الحضري • مفهوم التنظيم الإيكولوجي للمجتمع الحضري • الربط بين الهجرة، الصراع، والتوزيع المكاني
إرنست برجس (Ernest Burgess)	علم الاجتماع الحضري – مدرسة شيكاغو	• نموذج الحلقات المتراكزة للمدينة • تفسير التوزيع السكاني والوظيفي في المدن • تحليل المنافسة والسيطرة داخل المجال الحضري
رادكليف براون (A. R. Radcliffe-Brown)	الأنثروبولوجيا الاجتماعية	• الربط بين البيئة والبناء الاجتماعي • التأكيد على تكيف التنظيم الاجتماعي مع الشروط البيئية • توظيف التحليل البنيوي الوظيفي في السياق الإيكولوجي
جوليان ستيوارد (Julian Steward)	الأنثروبولوجيا الإيكولوجية	• مؤسس الأنثروبولوجيا الإيكولوجية • مفهوم النواة الثقافية • تفسير التغير الثقافي من خلال التفاعل مع البيئة• رفض الحتمية البيئية الصارمة

4. النظرية الإيكولوجية والثقافة

يرى المنظور الإيكولوجي أن الثقافة ليست نسقًا رمزيًا معزولًا، بل هي:

- ❖ استجابة تاريخية وبيئية
- ❖ أداة لتنظيم العلاقة مع الطبيعة
- ❖ وسيلة لضمان البقاء والاستمرارية

وتشمل هذه الثقافة: القيم البيئية، المعتقدات المرتبطة بالطبيعة، أنماط الاستهلاك، وتقنيات استغلال الموارد.

5. التطبيقات السوسيولوجية للنظرية الإيكولوجية

تُستخدم النظرية الإيكولوجية في تحليل:

- ❖ الثقافة الحضرية والريفية
- ❖ الهجرة والتوسع العمراني

- التغير الثقافي الناتج عن التحولات البيئية
- أنماط العيش التقليدية في المجتمعات الصحراوية والجبلية
- قضايا البيئة والتنمية المستدامة

6. نقد النظرية الإيكولوجية

رغم أهميتها، وُجهت للنظرية الإيكولوجية عدة انتقادات، منها:

- الميل أحيانًا إلى الحتمية البيئية
- التقليل من دور الفاعل الاجتماعي والرمزية الثقافية
- صعوبة القياس الدقيق للتأثيرات البيئية
- إهمال علاقات القوة والسيطرة الاقتصادية في بعض التحليلات

وقد أسهمت هذه الانتقادات في تطوير اتجاهات أكثر توازنًا مثل **الإيكولوجيا السياسية**.

سادسا: التطورية الجديدة

مثّلت النظريات التطورية الكلاسيكية في القرن التاسع عشر محاولة مبكرة لفهم تطور المجتمعات الإنسانية وفق مسار خطي واحد، غير أن هذه التصورات تعرّضت لانتقادات حادة بسبب نزعتها الاختزالية والحتمية. وفي منتصف القرن العشرين ظهر اتجاه جديد عُرف بـ **التطورية الجديدة(Neo-Evolutionism)** ، سعى إلى إعادة الاعتبار لفكرة التطور الاجتماعي، ولكن بمنظور أكثر علمية ومرونة، يأخذ في الحسبان التعدد الثقافي، والتغير غير الخطي، ودور البيئة والتكنولوجيا والطاقة في تطور المجتمعات.

1. السياق التاريخي لظهور التطورية الجديدة

جاءت التطورية الجديدة في سياق:

- نقد التطورية الأحادية الخط (تايلور، مورغان)
- تطور الأنثروبولوجيا الثقافية والبيئية
- التقدم العلمي والتكنولوجي بعد الحرب العالمية الثانية
- الحاجة إلى تفسير التغير الاجتماعي في المجتمعات الصناعية والمعاصرة

وقد حاولت التطورية الجديدة تجاوز ثنائية: الحتمية البيولوجية من جهة، والنسبية الثقافية المطلقة من جهة أخرى.

2. المفاهيم الأساسية في التطورية الجديدة

أ- **التطور متعدد الخطوط:** ترفض التطورية الجديدة فكرة المسار الواحد للتطور، وتؤكد أن المجتمعات تتطور عبر مسارات متعددة حسب ظروفها البيئية والتاريخية والثقافية.

ب- **التكيف:** يُنظر إلى التطور الاجتماعي بوصفه عملية تكيف مستمرة بين المجتمع وبيئته الطبيعية والاجتماعية.

ج- **الطاقة والتكنولوجيا:** ترى بعض اتجاهات التطورية الجديدة أن قدرة المجتمع على استغلال الطاقة والتحكم في التكنولوجيا تُعد مؤشرًا رئيسيًا على مستوى تطوره.

د- **التعقيد الاجتماعي:** يرتبط التطور بزيادة التمايز البنيوي، وتعدد الأدوار والمؤسسات، وليس بالضرورة بالتقدم الأخلاقي أو الثقافي.

3. روّاد التطورية الجديدة

الرائد	التخصص / الاتجاه	أهم الأفكار والإسهامات
ليزلي وايت (Leslie White)	الأنثروبولوجيا الثقافية – التطورية الجديدة	• جعل الطاقة معيارًا أساسياً للتطور الثقافي • العلاقة بين الثقافة والتكنولوجيا والطاقة • معادلته الشهيرة: الثقافة = الطاقة × التكنولوجيا • اعتبار التطور الثقافي عملية عامة وشاملة
جوليان ستيوارد (Julian Steward)	الأنثروبولوجيا الإيكولوجية – التطور متعدد الخطوط	• مؤسس فكرة التطور متعدد الخطوط • الربط بين البيئة والتغير الثقافي • مفهوم النواة الثقافية • رفض التطورية الأحادية الخط
جيرارد لينسكي (Gerhard Lenski)	علم الاجتماع التطوري	• نظرية تطور النظم الاجتماعية • العلاقة بين التكنولوجيا والتنظيم الاجتماعي • تحليل عدم المساواة الاجتماعية في المجتمعات الصناعية والمتقدمة
مارشال سالينز (Marshall Sahlins)	الأنثروبولوجيا الثقافية – تطورية نقدية	• تطوير مقاربة تكاملية بين الثقافة والتاريخ • نقد الحتمية المادية الصرفة • إبراز دور المعنى والثقافة في مسار التطور

4. التطورية الجديدة في علم الاجتماع الثقافي

أسهمت التطورية الجديدة في:

- ❖ تفسير التحولات الثقافية بعيدًا عن المركزية الأوروبية
- ❖ فهم التنوع الثقافي كنتاج لمسارات تطورية مختلفة
- ❖ تحليل العلاقة بين الثقافة والتكنولوجيا والبيئة
- ❖ دراسة المجتمعات الحديثة والمعقدة

5. مقارنة بين التطورية الكلاسيكية والتطورية الجديدة

وجه المقارنة	التطورية الجديدة	التطورية الكلاسيكية
مسار التطور	متعدد الخطوط	أحادي وخطي
النظرة للثقافة	نسبية وتكيفية	سلمية/ترتيبية
دور البيئة	أساسي	ثانوي
المنهج	علمي/تجريبي	فلسفي/تأملي
الموقف من التقدم	غير حتمي	حتمي

6. نقد التطورية الجديدة

رغم طابعها التجديدي، وُجهت للتطورية الجديدة عدة انتقادات:

- ❖ التركيز المفرط على العوامل المادية
- ❖ التقليل من دور الرموز والمعاني
- ❖ صعوبة القياس الكمي لبعض مفاهيمها
- ❖ استمرار بعض النزعات الحتمية المقنّعة

سابعا: نظرية الانتخاب الثقافي

شهد علم الاجتماع الثقافي في العقود الأخيرة اهتمامًا متزايدًا بتفسير آليات انتشار العناصر الثقافية وبقائها أو اندثارها داخل المجتمعات. وفي هذا السياق برزت **نظرية الانتخاب الثقافي** باعتبارها مقاربة تفسيرية تستلهم بعض مفاهيمها من نظرية الانتخاب الطبيعي في البيولوجيا، دون الوقوع في الحتمية البيولوجية. وتهدف هذه النظرية إلى فهم كيفية **اختيار المجتمع لبعض الأفكار**

والقيم والممارسات الثقافية واستمرارها، مقابل تراجع أو اختفاء عناصر أخرى، نتيجة التفاعل بين الفاعلين الاجتماعيين والسياقات التاريخية والاقتصادية والرمزية.

1. السياق الفكري لنشأة نظرية الانتخاب الثقافي

ظهرت نظرية الانتخاب الثقافي في سياق:

- ❖ نقد الحتمية الثقافية والبيئية
- ❖ تطور الدراسات السوسيولوجية حول الثقافة والتغير
- ❖ التأثر غير المباشر بنظرية التطور والانتخاب الطبيعي
- ❖ تطور مفاهيم الانتشار الثقافي والتغير الرمزي

وقد ساهمت **النيوداروينية الاجتماعية**، و**السوسيولوجيا التطورية**، و**الأنثروبولوجيا المعرفية** في بلورة هذا الاتجاه، مع التأكيد على استقلال الثقافة عن البيولوجيا.

2. المفاهيم الأساسية في نظرية الانتخاب الثقافي

أ- **العنصر الثقافي:** يشمل القيم، المعتقدات، الرموز، العادات، التقاليد، أنماط السلوك، والأنساق الرمزية التي تنتقل اجتماعيًا.

ب- **الانتقاء الثقافي:** هو العملية التي يتم من خلالها تفضيل بعض العناصر الثقافية على غيرها، بناءً على قدرتها على:

- التكيف مع الواقع الاجتماعي
- إشباع حاجات الأفراد والجماعات
- تحقيق القبول والشرعية الاجتماعية

ج- **الانتشار الثقافي:** يشير إلى انتقال العناصر الثقافية بين الأفراد والجماعات، وهو شرط أساسي لحدوث الانتخاب الثقافي.

د- **البقاء الثقافي:** يقصد به استمرار عنصر ثقافي عبر الزمن، نتيجة فعاليته الرمزية أو الوظيفية أو الاقتصادية.

3. الأسس النظرية لنظرية الانتخاب الثقافي

تقوم نظرية الانتخاب الثقافي على جملة من الأسس، أهمها:

- ❖ الثقافة نسق ديناميكي قابل للتغير
- ❖ الأفراد فاعلون في اختيار العناصر الثقافية
- ❖ السياق الاجتماعي والتاريخي يحدد فرص الانتخاب

- لا يوجد تطور ثقافي خطي أو حتمي

وترفض هذه النظرية فكرة أن الثقافة تُفرض بشكل آلي أو قسري، مؤكدة على **التفاعل والاختيار**.

4. روّاد ومقاربات نظرية الانتخاب الثقافي

لا ترتبط نظرية الانتخاب الثقافي باسم مؤسس واحد، بل هي نتاج تراكمي لعدة مقاربات، من أبرزها:

- **هربرت سبنسر (Herbert Spencer):** التمهيد لفكرة البقاء والانتقاء في المجال الاجتماعي.
- **ليزلي وايت (Leslie White):** ربط التطور الثقافي بالطاقة والتكنولوجيا.
- **مارفن هاريس (Marvin Harris):** المادية الثقافية واختيار العناصر الأكثر نجاعة ماديًا.
- **ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins):** مفهوم "الميم" كوحدة ثقافية قابلة للانتخاب (مع توظيف حذر في السوسيولوجيا).
- **بيير بورديو (Pierre Bourdieu):** من خلال مفاهيم الذوق، الحقل، ورأس المال الرمزي، حيث يتم انتقاء أنماط ثقافية معينة.

5. نظرية الانتخاب الثقافي والتغير الاجتماعي

تُفسّر نظرية الانتخاب الثقافي التغير الاجتماعي باعتباره:

- عملية تراكمية غير خطية
- ناتجة عن التفاعل بين القديم والجديد
- مرتبطة بتحولات السلطة، الاقتصاد، والتكنولوجيا

فالعناصر الثقافية التي لا تتلاءم مع التحولات الاجتماعية غالبًا ما تفقد قدرتها على الاستمرار.

6. تطبيقات نظرية الانتخاب الثقافي

تُستخدم هذه النظرية في تحليل:

- تحولات القيم في المجتمعات الحديثة
- الثقافة الاستهلاكية وأنماط الذوق
- انتشار أنماط العيش الجديدة
- الثقافة الرقمية ووسائل التواصل الاجتماعي
- اندثار بعض التقاليد وبقاء أخرى

7. نقد نظرية الانتخاب الثقافي

رغم أهميتها، وُجهت لنظرية الانتخاب الثقافي عدة انتقادات، منها:

- ❖ التشابه المفاهيمي مع البيولوجيا
- ❖ صعوبة القياس الدقيق لعمليات الانتخاب
- ❖ إغفال علاقات القوة أحيانًا
- ❖ خطر التفسير الوظيفي المفرط

وقد دفعت هذه الانتقادات إلى تطوير مقاربات أكثر توازنًا تجمع بين الثقافة والسلطة والمعنى.

ثامنا: نظرية القابلية الاجتماعية والثقافية للنماء

تُعدّ نظرية **القابلية الاجتماعية والثقافية للنماء** من المقاربات التي تسعى إلى تفسير **تفاوت مسارات النماء والتقدم بين المجتمعات**، ليس انطلاقًا من العوامل الاقتصادية أو التقنية وحدها، بل من خلال التركيز على **الاستعداد الاجتماعي والثقافي الداخلي** لتقبّل التغير، واستيعاب قيم النماء، وتحويل الإمكانات المتاحة إلى إنجازات واقعية. وتُستخدم هذه النظرية بكثرة في سوسيولوجيا التنمية وعلم الاجتماع الثقافي.

1. السياق الفكري لظهور النظرية

ظهرت هذه النظرية في سياق:

- ❖ نقد التفسيرات الاقتصادية الحتمية للتنمية
- ❖ فشل بعض مشاريع التنمية في مجتمعات تملك الموارد
- ❖ تنامي الاهتمام بالثقافة كعامل مفسِّر للتقدم أو التعثر
- ❖ تطور دراسات التغير الاجتماعي والتنمية البشرية

وقد تأثرت بأعمال:

- ✓ **مالك بن نبي** (القابلية للاستعمار/النهوض)
- ✓ **ماكس فيبر** (القيم والثقافة والتنمية)
- ✓ **سوسيولوجيا التحديث والتنمية**

2. المفاهيم الأساسية في نظرية القابلية للنماء

أ- **القابلية الاجتماعية:** تشير إلى مدى استعداد البناء الاجتماعي (المؤسسات، العلاقات، التنظيمات) لتقبّل: التغيير، الإصلاح

وإعادة التنظيم والمشاركة الجماعية.

ب- القابلية الثقافية: تعني استعداد المنظومة الثقافية (القيم، العقليات، التمثلات، الذهنيات) لـ: تبنّي قيم العمل والانضباط، وقبول العقلانية والعلم، وتجاوز التقليد الجامد، وتشجيع المبادرة والإبداع.

ج- النماء: لا يُختزل في النمو الاقتصادي، بل يشمل: النماء الاجتماعي، النماء الثقافي، لنماء القيمي، النماء الإنساني الشامل.

3. الأسس النظرية لنظرية القابلية للنماء

ترتكز النظرية على جملة من المسلمات، أهمها:

- التنمية لا تُفرض من الخارج
- الثقافة شرط أساسي لنجاح مشاريع النماء
- الإنسان هو محور التنمية وغايتها
- وجود الموارد لا يعني تحقق النماء
- التغير يبدأ من الداخل قبل الخارج

4. القابلية للنماء وعلاقتها بالثقافة

ترى النظرية أن الثقافة قد تكون:

- **عامل دفع للنماء** إذا شجعت العقلانية والعمل والمسؤولية
- **عامل إعاقة** إذا كرّست الاتكالية، القدرية، أو رفض التغيير

ومن هنا، يصبح إصلاح الثقافة شرطًا أوليًا لأي مشروع تنموي ناجح.

5. القابلية للنماء في المجتمعات النامية

تُستخدم هذه النظرية لتفسير:

- تعثر التنمية رغم توفر الموارد
- فشل استنساخ نماذج تنموية غربية
- مقاومة التغيير الاجتماعي
- ضعف الفعالية المؤسسية

وترى أن غياب القابلية الاجتماعية والثقافية للنماء يؤدي إلى:

- هدر الموارد
- فشل السياسات العمومية
- إعادة إنتاج التخلف

6. نقد نظرية القابلية الاجتماعية والثقافية للنماء

من أبرز الانتقادات الموجهة لها:

- تحميل الثقافة مسؤولية التخلف بشكل مفرط
- إغفال أحيانًا للعوامل البنيوية العالمية (الهيمنة، التبعية)
- إمكانية توظيفها أيديولوجيًا لتبرير الفشل السياسي

غير أن أنصارها يرون أنها لا تُلغي العوامل الأخرى، بل **تكشف البعد الثقافي المغفَل** في التحليل التنموي.

خلاصة المحاضرة

تُبيّن النظريات السوسيولوجية أن الثقافة ليست معطًى ثابتًا أو مجرد نتاج رمزي معزول، بل هي ظاهرة اجتماعية ديناميكية تتشكّل داخل سياقات تاريخية، اقتصادية، بيئية، ورمزية متداخلة. وقد جاءت تعددية النظريات في علم الاجتماع الثقافي استجابة لتعقّد الظاهرة الثقافية واستحالة تفسيرها من منظور أحادي.

فقد ركّزت **النظرية الوظيفية** على الثقافة بوصفها نسقًا من القيم والمعايير التي تضمن الاستقرار والتكامل الاجتماعي، مؤكدة الوظائف التي تؤديها المؤسسات الثقافية في حفظ النظام الاجتماعي. في المقابل، قدّمت **النظرية الماركسية** قراءة نقدية ترى الثقافة أداة للصراع والهيمنة الطبقية، وتُبرز دور الأيديولوجيا في إعادة إنتاج علاقات السيطرة وعدم المساواة.

أما **النظرية الإيكولوجية** فقد أعادت الاعتبار للعلاقة بين الثقافة والبيئة، مبيّنة أن الممارسات الثقافية وأنماط العيش تتشكل عبر التفاعل مع الشروط البيئية والمجالية. بينما حاولت **التطورية الجديدة** تجاوز الحتمية الخطية، معتبرة أن التطور الثقافي والاجتماعي يسير وفق مسارات متعددة تحددها التكنولوجيا والطاقة والتكيف.

ومن جهة أخرى، فسّرت **النظرية الانتشارية ونظرية الانتخاب الثقافي** التغير الثقافي من خلال انتقال العناصر الثقافية وانتقائها اجتماعيًا، حيث لا تبقى جميع العناصر بل تُنتقى تلك الأكثر توافقًا مع الحاجات والسياقات الاجتماعية. في حين ركزت **نظرية القابلية الاجتماعية والثقافية للنماء** على الاستعداد الداخلي للمجتمع لتقبّل التغير وتحقيق التنمية، مؤكدة أن النهوض لا يتحقق دون إصلاح ثقافي وإنساني عميق.

وعليه، يتضح أن كل نظرية تسلط الضوء على بعد معيّن من أبعاد الثقافة، ولا يمكن لأي مقاربة بمفردها الإحاطة بكل تعقيداتها. ومن ثم، فإن الفهم السوسيولوجي الرصين للثقافة يقتضي **مقاربة تركيبية نقدية**، توظّف هذه النظريات بشكل تكاملي، مع مراعاة الخصوصيات التاريخية والثقافية للمجتمعات، خاصة في السياقات العربية والجزائرية.